من روائع الأدب ١

موقف عزّ

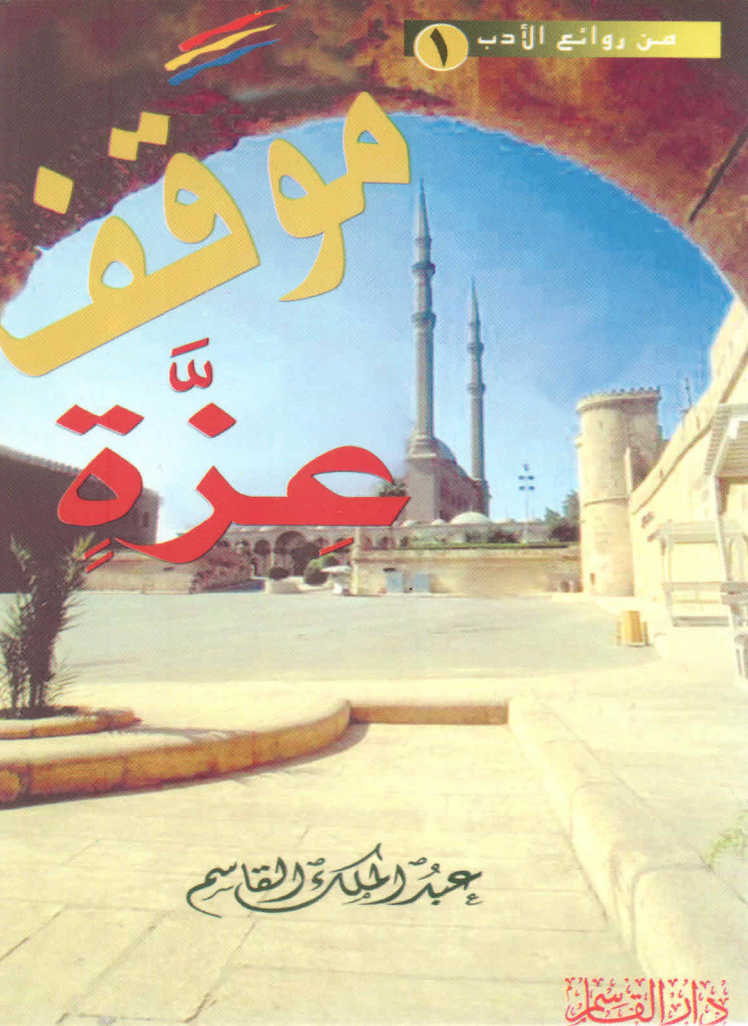

عبد الحليم القاسم

دار القلم

(ح) دار القاسم للنشر، ١٤٢٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر
دار القاسم للنشر والتوزيع (الرياض)
موقف عزة ـ الرياض ـ
٢٤ ص ؛ سم
١ـ القصص العربية أ ـ العنوان
ديوي ٩, ٨١٠ ٢٣/٢٥٨١
رقم الإيداع: ٢٣/٢٥٨١
ردمك: ٦ ـ ٥٩٧ ـ٣٣ـ٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى : ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م

الصف والمراجعة والإخراج بدار القاسم

دار القاسم للنشر : الرياض ، ١١٤٤٢ ، ص . ب : ٦٣٧٣
هاتف : ٤٠٩٢٠٠٠ ـ فاكس : ٤٠٣٣١٥٠
• البريد الإلكتروني : sales @ dar - alqassem . com
• موقعنا على الانترنت : www - dar - alqassem.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بدأت شمس الإسلام تسطع ليعم خيرها أرجاء المعمورة! ولما أراد الله ـ عز وجل ـ أن يظل هذا النور قلوب كثير من الناس سخَّر له رجالاً يحملون مشاعل الهداية والعزة! في يوم من أيام الإسلام الخالدة صُوبت العيونً متجهة إلى شمال وشرق الجزيرة العربية حيث هناك الفرس والروم.. أعظم ممالك ذاك الزمان!

أرسل سعد بن أبي وقاص إلى المغيرة بن شعبة، وحذيفة بن محصن، وربعي بن عامر.. فقال: إنِّي مرسِلُكم إلى هؤلاء القوم فما عندكم؟ قالوا جميعاً: نتبع ما تأمرنا به وننتهي إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه

شيء نظرنا أمثل ما ينبغي وأنفعه للناس فكلمناهم به.

عندها قرت عين سعد القائد بهذا الجواب الحكيم فقال لهم: هذا فعل الحزمة، اذهبوا فتهيؤوا.

فقال ربعي بن عامر: إنَّ الأعاجم لهم آراءُ وآداب، ومتى نأتهم جميعاً يروا أنا قد احتفلنا بهم، فلا تزدهم على رجل، فمآلأوا جميعاً على ذلك، فقال: فسرِّحوني فسرَّحوه، فخرج ربعي ليدخل على رستم وعسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة، وأرسل إلى رستم لمجيئه، فاستشار عظماء أهل فارس فقال: ما ترون أنباهي أم نتهاون؟ فأجمع

ملؤهم على التهاون، فأظهروا الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق، ولم يتركوا شيئاً، ووُضِع لرستم سرير الذهب وأُلْبِسَ زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب.

وفي هذه الزينة والبهرجة وقد اكتسى رستم ابهة الحكم؛ أقبل ربعي يسير على فرسٍ له زباء قصيرة، معه سيفٌ له مشوف، وغمدة لفافة ثوب خلق، ورمحه معلوب بقدٍّ، معه حجفة من جلود البقر؛ على وجهها أديم أحمر مثل الرغيف، ومعه قوسه ونبله مظاهر البساطة تعلوها العزة.. لوحت ذراعه ووجهه شمس الصحراء وأنار قلبه نور الإيمان، فلمَّا غشي الملك، وانتهى إليه وإلى

أدنى البسط، قيل له: انزل، فحملها على البساط، فلمَّا استوت عليه، نزل عنها وربطها بوسادتين فشقهما، ثم أدخل الحبل فيهما، فلم يستطيعوا أن ينهوه؛ وإنما أروه التهاون، وعرف ما أرادوا، فأراد استخراجهم، وعليه درع له كأنَّها أضاة ويلمقه عباءة بعيره، قد جابها وتدرعها، وشدَّها على وسطه بسلب، وقد شد رأسه بمعجرته، وكان أكثر العرب شعرة، ومعجرته نسعة بعيره، ولرأسه أربع ضفائر، قد قمن قياماً، كأنهن قرون الوعلة.

وفي هذا المشهد الفريد.. أفي بلاط السلطان يحدث مثل هذا!.

عندها قادوه وقالوا:

ضع سلاحك.

فقال: إنِّي لم آتكم فأضع سلاحي بأمركم، أنتم دعوتموني، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت. فأخبروا رستم؛ فقال: ائذنوا به؛ هل هو إلا رجلٌ واحدٌ! فأقبل يتوكَّأ على رمحه، وزجُّه نصلٌ يقارب الخطو، ويزجُّ النمارق والبسط؛ فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منهتكاً مخرقاً؛ فلمَّا دنا من رستم تعلَّق به الحرس، وجلس على الأرض، وركز رمحه بالبسط.

فقالوا: ما حملك على هذا؟

قال: إنَّا لا نستحب القعود على زينتكم هذه.

فكلَّمه، فقال: ما جاء بكم؟

قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه؛ لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه، ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً؛ حتى نفضي إلى موعود الله.

قال: وما موعود الله؟

قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى.

فقال رستم: قد سمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخِّروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا؟

قال: نعم، كم أحبُّ إليكم؟ أيوماً أو يومين؟

قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا، وأراد مقاربته ومدافعته.

فقال: إنَّ ممَّا سنَّ لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا، ألا نمكِّن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر في أمركم وأمرهم، ، واختر واحدةً من ثلاث بعد الأجل.

اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكفُّ عنك، وإن كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك، أو المنابذة في اليوم الرابع. ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا؛ أنا كفيل لك بذلك على أصحابي وعلى جميع من ترى.

تعجب رستم وهو يسمع جواب رجلٍ عن أمة خلفه فبادره وقال:

أسيدهم أنت؟

قال: لا، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض؛ يجير أدناهم على أعلاهم.

فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال:

ما ترون؟ هل رأيتم كلاماً قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟

قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شيء من هذا، وتدع دينك لهذا الكلب! أما ترى إلى ثيابه؟!

فقال: ويحكم، لا تنظروا إلى الثياب؛ ولكن انظروا إلى الرأي والكلام والسيرة، إنَّ العرب تستخفُّ باللباس والمأكل، ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم في اللباس، ولا يرون فيه ما ترون.

بعد هذه المحاورة السريعة والآراء المضطربة عادوا إلى ربعي لعلهم يظفرون منه بشيء!

فأقبلوا يتناولون سلاحه، ويزهِّدونه فيه.

فقال لهم: هل لكم إلى أن تروني فأُرِيْكم؟

فأخرج سيفه من خرقةٍ كأنه شعلة نار.

فقال القوم: اغمده، ثم رمى تُرساً ورموا حَجَفته فخرق تُرسهم، وسلمت حجفته.

فقال: يا أهل فارس، إنكم عظَّمتم الطعام واللباس والشراب؛ وإنا صغَّرناهن.

انتهت المقابلة التي تحدد مصير أمم من البشر.

ثم رجع إلى أن ينظروا إلى الأجل، فلمَّا كان من الغد بعثوا: أن ابعث إلينا ذلك الرجل؛ فبعث إليهم سعد حذيفة بن محصن، فأقبل في نحوٍ من ذلك الزي، حتى إذا كان

على أدنى البساط، قيل له: انزل. قال: ذلك لو جئتكم في حاجتي، فقولوا لملككم: أله الحاجة أم لي؟

فإن قال: لي، فقد كذب، ورجعت وتركتكم، فإن قال: له، لم آتكم إلا على ما أحبُّ.

فقال: دعوه، فجاء حتى وقف عليه ورستم على سريره.

فقال: انزل، قال: لا أفعل، فلمَّا أبى سأله: ما بالك جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟

قال: إن أميرنا يحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء؛ فهذه نوبتي.

قال ما جاء بك؟

قال: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ منَّ علينا بدينه، وأرانا آياته، حتى عرفناه وكنا له منكرين. ثمَّ أمرنا بدعاء الناس إلى واحدةٍ من ثلاث، فأيها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة.

فقال: أو الموادعة إلى يوم ما؟

فقال: نعم، ثلاثاً من أمس. فلمَّا لم يجد عنده إلا ذلك ردَّه وأقبل على أصحابه.

فقال: ويحكم، ألا ترون إلى ما أرى! جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا، وحقَّر ما نعظِّم، وأقام فرسه على زبرجنا

وربطه به، فهو في يمن الطائر ذهب بأرضنا وما فيها إليهم مع فضل عقله وجاءنا هذا اليوم فوقف علينا، فهو في يمين الطائر يقوم على أرضنا دوننا؛ حتى أغضبهم وأغضبوه، فلما كان من الغد أرسل: ابعثوا إلينا رجلاً، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة.

فلما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى أهل فارس حبسوه، واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئاً من شارتهم، تقويةً لتهاونهم، فأقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيِّهم؛ عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب، وبسطهم على غَلْوة لا يصل إلى صاحبهم؛ حتى يمشي عليهم غلوةٍ، وأقبل

المغيرة وله أربع ضفائر يمشي، حتى جلس معه على سريره ووسادته؛ فوثبوا عليه فتروه، وأنزلوه، ومغثوه.

فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام؛ ولا أرى قوماً أسفه منكم! إنا معشر العرب سواء، لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تُواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أنْ تخبروني أنَّ بعضهم أرباب بعضٍ، وأنَّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني اليوم، علمت أنَّ أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون؛ وأن مُلكا لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول.

فقالت السفلة: صدق ـ والله ـ العربي.

وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة! فمازحه رستم؛ ليمحو ما صنع، وقال له: يا عربي، إنَّ الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك، فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عمَّا ينبغي من ذلك؛ فالأمر على ما تحبُّ من الوفاء وقبول الحق؛ ما هذه المغازل التي معك؟

قال: ما ضرّ الجمرة ألا تكون طويلة! ثم راماهم.

وقال: ما بال سيفك رثًّا؟

قال: رث الكسوة، حديد المضربة. ثم عاطاه سيفه.

ثم قال له رستم: تكلَّم أم أتكلَّم؟

فقال المغيرة: أنت الذي بعث إلينا، فتكلَّم، فأقام الترجمان بينهما، وتكلَّم رستم، فحمد قومه، وعظَّم أمرهم وطوَّله، وقال: لم نزل متمكِّنين في البلاد، ظاهرين على الأعداء، أشرافاً في الأمم؛ فليس لأحد من الملوك مثل عزِّنا وسلطاننا، نُنصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين، أو الشهر والشهرين؛ للذنوب؛ فإذا انتقم الله فرضي ردَّ إلينا عزَّنا، وجمعنا لعدونا شر يوم هو آتٍ عليهم. ثمَّ إنه لم يكن في الناس أمة

أصغر عندنا أمراً منكم؛ كنتم أهل قشفٍ ومعيشةٍ سيئةٍ، لا نراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم، وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد في بلادكم، فأنا آمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين، وتنصرفون عنَّا، فإنِّي لست أشتهي أن أقتلكم ولا آسركم.

فتكلَّم المغيرة بن شعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن الله خالق كلِّ شيءٍ ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو الذي يصنعه هو له.

وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك، من الظهور على الأعداء والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا؛ فنحن نعرفه، ولسنا ننكره؛ فالله صنعه بكم؛ ووضعه فيكم؛ وهو له دونكم؛ وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال، وضيق المعيشة واختلاف القلوب، فنحن نعرفه، ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك، وصيرنا إليه، والدنيا دول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه؛ ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها؛ ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر، كان شكركم يقصر عمَّا أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغيُّرُ

الحال؛ ولو كنَّا فيما ابتلينا به أهل كفر؛ كان عظيم ما تتابع علينا مستجلباً من الله؛ رحمةً يرفه بها عنا، ولكن الشأن غير ما تذهبون إليه، أو كنتم تعرفوننا به؛ إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ بعث فينا رسولا... ثم ذكر مثل الكلام الأول؛ حتى انتهى إلى قوله: وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكن لنا عبداً تؤدي الجزية عن يدٍّ وأنت صاغرٌ، وإلا فالسيف إن أبيت!! فنخر نخرةً واستشاط غضباً، ثم حلف بالشمس لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين. فانصرف المغيرة [انظر تاريخ الطبري: (٢/ ٤٠١ـ٤٠٤)].